

البدء الآخر: تسليم التقاليد ل: جيرار غرانيل (الجزء الأول)

The other beginning: Traditionis traditio by G. Granel

جيرار بيشي، ترجمة: قواسمي مراد

جامعة عبد الحميد ابن باديس-مستغانم/ الجزائر (mourad.gouasmi@univ-mosta.dz)

تاريخ الاستلام : 2024/10/12 ؛ تاريخ القبول : 2024/11/11 ؛ تاريخ النشر : 2024/11/20

Abstract

الملخص

Gérard Bucher employs the concept of "another beginning" to indicate traditions in understanding the Western metaphysical heritage, drawing on the phenomenology of Husserl, Heidegger, and Derrida. He explores Heidegger's work on the notion of the event and its phenomenological interpretation, which implies repetition and radical transformation. It is noteworthy that in an era of confusion, only Derrida's works receive appreciation, as highlighted in his "Introduction." Granell's deep sense of belonging, affirmed through his reading of the early works of the author of "Grammatology," reflects a sense of bewilderment toward positions that are described as "shocking" in relation to Heidegger. Furthermore, in an era characterized by confusion and stagnation, Derrida's works find favor, as noted since his "Introduction." He then turns to Marx, whose ontology offers an understanding of the Western tradition.

يوظف جيرار بيشي مفهوم "البدء الآخر" للدلالة على التقاليد في فهم التراث الميتافيزيقي الغربي بالاعتماد على فينومينولوجيا هوسرل وهايدغر ودريدا. إذ يستعرض عمل هايدغر لفكرة الحدث وتأويلها الفينومينولوجي الذي يفيد التكرار والتحول الجذري. كما أنه من الملحوظ أنه في عصر الارتباك وحدها أعمال دريدا تجد الاستحسان "مقدمته". إن شعور الانتماء العميق المؤكد من طرف غرانيل لقراءة أولى أعمال مؤلف "الغراماتولوجيا" هو شعور الحيرة تجاه مواقف تتصف ب"الصادمة" تجاه هايدغر. كما أنه من الملحوظ أنه في عصرٍ تميّز بالارتباك والركود، تجد أعمال دريدا الاستحسان كما يشير إليه منذ "مقدمته"، ثم يعرج نحو ماركس الذي تمكن أنطولوجيا من التزويد بفهم التراث الغربي.

Keywords : another beginning, traditions, phenomenology, metaphysic, understanding.

الكلمات المفتاحية: البدء الآخر، تقليد، فينومينولوجيا، ميتافيزيقيا، فهم.

1. مقدمة:

أعترمت منذ البداية (بدء من عنوان مداخلتي) توظيف شعار الهيدغري لـ "البدء الآخر" بمفهوم التقاليد [traditio] الذي تكون كل عملية نقل، بالنسبة له مشوبة، ضرورة، بالاختراق والخيانة. يشهد تاريخ الميتافيزيقا، بدون شك، على العلاقة ما بين الاستمرارية والقطعية، الميراث والتحريف، الإبداع والتدمير، ولكن هذه الصفة تتجلى في المقام الأول، بالنسبة لنا، نحن الحداثيين (وخصوصا بالنسبة لغرانيل) عن طريق الانشاقات السرية والعلنية، في الآن معا، بين هوسرل وهيدغر في الوقت الذي الذي حسم فيه مصير ألمانيا وأوروبا في سنوات الثلاثينيات بصورة دراماتيكية.

إننا على علم بأن هيدغر قد طوّر فكرة "البدء الآخر" بخاصة في "مساهمات فلسفية" فيما يختص بـ l'Ereignis، الذي يمكننا ترجمته بـ "حدث" أو "قDOM" ولكن ذلك الذي يجب ربطه، ضرورة، بإمكانية قلب العين أو تحوّل الرؤية (إنه المعنى الألماني القديم لـ eraügnen الذي يفضله صاحب "الكيونة والزمان". وبالتالي، يحدّد غرانيل كتاب 1971 تحت شعار التكرار والتحوّل الجذري.

وأكثر من الخلافات بين هايدغر وهوسرل، فمن المحتمل أنه قد تبنّى في وقت مبكر عدم الارتياح للمقترحات التي تعارض الانشاقات الحزبية المحيطة بإطار "عمل العصر [المخصص لـ] جهل جزئي ممزوج بالوقاحة". كما أنه من الملحوظ أنه في عصرٍ تميّز بالارتباك والركود، وحدها أعمال دريدا تجد الاستحسان في نظره كما يشير إليه منذ "مقدمته". إن شعور الانتماء العميق المؤكد من طرف غرانيل لقراءة أولى أعمال مؤلف "الغراماتولوجيا" هو شعور ممزوج بالحيرة تجاه مواقف تتصف بـ "الصادمة" تجاه هيدغر. (جيرار غرانيل، 1972، ص167).

والحال أن قلق هذا التسليم الذي يمنح "انسجاما غريبا في قراءة نصوصه الميتافيزيقية" (نفسه، ص147) هو ما نسعى للاستعانة به، من جهتنا، في قراءتنا لكتاب "تسليم التقاليد". إنه في الواقع، من منظور تواطؤ أساسي نسعى لإجرائه، على مدى تراجع ما يقارب الـ 40 عاما، وهو ما يمنح للكتاب رهنيته. فالانخراط قصدا في "المعركة" التي كانت معركته يدعونا، على غرار، للالتفاف حول المعرفة لكي تتمكن من تركيز النضال حول العالم على النضال ضد انعدام العالم [الافتقار إلى العالم] في الميتافيزيقا، وفي أوّل المقام ضد الذات اليتيمة من العالم عند الحداثيين. " (نفسه، ص147) هذا ما أسميه، إذا، بواجب التسليم [بالتعارض مع ما يسمّى في أيامنا هذه، بدون قناعة وفيرة، "واجب الذاكرة"] لكي أتمكّن من الإشارة إلى تحديد فضليّ الخاصين ببحثي.

يرتكز الفصل الأول على الانخراط في "تسليم التقاليد" المُشكّل من ثلاثة إشكاليات محايثة للمواقف التي خصّصها غرانل ليهيدغر، دريدا وماركس؛ والفصل الثاني الختامي يتمحور حول مختلف المشاهد للامفكر الخاص بهيدغر، والذي يستهدف، فيما وراء مواقف غرانل، إعطاء ما أمكنه من الامتداد التاريخي الممتلئ لواجب الـ"بدا الآخر".

2. البدا الآخر حسب جيرار غرانل.

أسعى الآن إلى توصيف الخطوط العريضة للإشكالية التي تتضمن أساسا مجموع المقالات التي تؤلف "تسليم التقاليد". لقد أوعزته، تعاقبيا، إلى مدى التعقّد الأنثروبولوجي-فلسفي للفكر المعاصر، ثم إلى الإثبات الغرانيلي لإواليات الفكر بما هي نفسها: "نفس حركة الثقة المطلقة في الفكر" تعبر [كلّ النصوص المجتمعة هاهنا]، وبدون شك، تقوم بالأحرى بإثارتها، ونفس الشعور باختلاف ضروري، إذن، بين هذا "الفكر" وكل نظام آخر من الكتابة والمعرفة" (نفسه، ص7).

يضع غرانل منذ "مقدماته" مسافة حاسمة بين "نظرية المجالات" *théorie des domaines* [...] "الوضعية" (التحليل النفسي، اللسانيات، تطبيق العلوم، الأنثروبولوجيا، الاقتصاد)، وبين الفلسفة التي يمثّلها بـ"الكفاءة الغريبة لنوع من العمل النظري" "اللا-وضعي" والتي يربطها بالافتتان الذي يمارسه عليه "فراغ-ال-مركز": وإن كان هنا "مركز" فإنّه مركز بلا مجال، وبمعنى ما فالفكر ليس شيئا" (نفسه، ص 12).

إن إنصاف موقف غرانل الغريب والمركزي في سياق ما يسميه "النضال النظري [اليوم]" يقودنا إلى الاعتراف بطريقة "تسليم التقاليد" (هكذا تمّ نشر الكتابين حول هوسرل وكانط تعاقبيا في 1971) اللذان صنعا حقبة ويمكنهما أن يصنعا حقبة جديدة بالنسبة لنا (وهذا بدون أحكام مسبقة عن الدّرب الذي سلكه غرانل بعد "تسليم التقاليد").

سأتكلّف إذا بمهمة إعادة تحديد التوافقات والتباينات (لكي استعير من دريدا نحتا لمّاحا) ما بين الفصول الأساسية لـ "تسليم التقليد" كما أفهمها، تحديدا، في أفق "واجب التقاليد" الذي هو القضية الأكثر استعجالا رغم أنها الأكثر تراجعا. لا يتعلّق الأمر فقط بالاعتراف بأزمة الفكر الأوروبي. "المهمة اللامتناهية للعمل الفينومينولوجي الذي ينبغي أن ينتج عنه إنتاج عالميته للعالم الحديث، والذي جعل غيابه حتى الآن من أوروبا بلدا للأزمة" (نفسه، ص 145-146)، بل بالتقدّم بعمل التفكير على شاكلة المحاولة، أمانة وتجاوزا، بـ"صنع عالم" أو أيضا فتح فجوة لعالمية أخرى مرتبطة بسرّ إنسانيتنا وبالتالي لما يتجاوز أوروبا.

سأقوم الآن بدراسة اللحظات-المفتاحية الثلاثة في البرهان الداخلي لكتاب "تسليم التقليد"، وسأربطها بثلاث وجوه كبرى للفكر الحديث وهي : هايدغر، دريدا، وماركس.

بوصفه يتميز بعمل مكثف لإعادة تقييم موث الفكر منذ سنوات الخمسينيات، فإن "تسليم التقليد" يتجلى لا فقط كانعكاس وإنما كأعادة صياغة للأحداث الفلسفية التي حدّدت مصير الفكر خلال النصف الأول من القرن العشرين. لقد مثل ظهور الفينومينولوجيا في المشهد الفلسفي منذ بداية القرن، ومن ثمة تطوّر هذه المدرسة تبعا للخيانة المثمرة لهيدغر، بالنسبة لغرانل الشاب قيمة نموذجية. من الواضح بأن نسق النصوص المجمّعة في الجزء الثاني من الكتاب الموسوم بـ"حرب العمالقة" يشهد على التجربة غير المناسبة وبصورة ما مؤلمة لما ينبغي على الفكر المعاصر مواجهته في "نهاية الميتافيزيقا". هذه الصياغة الأخيرة، كما نعلم، تحيل إلى عنوان الفقرة الختامية للجزء الثالث من الكتاب الموسوم بـ: "مفتتح ماركس" (Incipit MARX).

في الفصلين اللذين يخصصهما لعمل هيدغر، فإننا سنكتفي بالإشارة إلى الكيفية التي يعيد بها غرانل الاعتبار للإزاحة الهيدغرية للمشروع الفينومينولوجي (أي معاودة اختبار هذين المكوّنين . ما يظهر phainestai، ولوغوس logos (الكلمة/الخطاب). (أنظر: الكينونة والزمان §7) وفي نفس الوقت إعادة فتح التأمل حول العلاقات بين الأنثروبولوجيا والفلسفة. إن اختبار ثنائيات (Vorhandenheit الوجود الكائن) و (Zuhandenheit الوجود المتاح) في النص الأول، ثم ثنائية العالم Welt والعالم المحيط Umwelt في النص الثاني يخرط ضمن استراتيجية تستهدف بيان طبيعة الانزلاق الهرمينوطيقي من هوسرل إلى هيدغر، ويشهد خصوصا، مثلما يشير إليه غرانل، على أن "التكرار الذي انخرط فيه هيدغر عام 1926-27 هو تكرار لكانط، وليس تكرارا لهوسرل" (أنظر، نفسه، ص 67). كل هذه الحركة تؤدّي بنا إلى الكتاب الشهير "كانط ومشكل الميتافيزيقا" وتزامنا مع ذلك إلى "الالتباس الأنطولوجي للفكر الكانطي" الذي نشره غرانل عام 1970، حوالي عام قبل "تسليم التقليد". تكفي الإشارة إلى أن كتاب كانط هو الكتاب الذي يختبر فيه هيدغر منابع الالتباس الميتافيزيقي، القائل إلى حدّ ما، بين الأنثروبولوجيا والفلسفة (حيث يحمل الجزء الأخير من هذا الكتاب عنوانا غامضا: تأسيس أساس الميتافيزيقا بما هي أنثروبولوجيا).

هذا العمل حول كانط الذي كان يقرّ، كما نعلم، بعدم اكتمال "الكينونة والزمان" كان شاهدا على أن هوة الأساس بما هي حدّث كان عليه أن يحقق الهدف المزدوج للقطيعة مع الوضعية العلمية، وبخاصة مع علوم الإنسان، ومع انفتاح الفكر على مفارقة الخفي أو اللاشيء/العدم.

مع اختتام هذه الفقرة، نلاحظ أنه من الواضح أن كتاب غرانيل حول كانت، الذي يخرط في الامتداد المعترف به لكتاب كانت، يضطلع أيضا بالنتائج الحاصلة بالنظر إلى الأنثروبولوجيا الفلسفية: "يبين نقد فكرة الأنثروبولوجيا الفلسفية [...] أنه لا يكفي ببساطة طرح السؤال [الكانطي] الرابع، سؤال ماهية الإنسان؛ على العكس فإن عدم دقته تشير لنا أخيرا أننا لم نلج بعد، وحتى الآن، إلى تملك النتيجة الحاسمة للتأسيس الكانطي للأساس" (مارتن هيدغر، كانت ومشكلة الميتافيزيقا، 1953، ص 270)، وفي هذا الأفق بالذات يتوافق الأمر مع تحديد "ملاحظات حول الدخول إلى فكر مارتن هيدغر" (النص الثاني لجرانيل حول مؤلف "الكونية والزمان"): "لعل هيدغر، الذي يدين له العالم كله بالنور الذي يمكنه امتلاكه اليوم حول ما يحدّد مصيرنا، أي حول نهاية الفلسفة الغربية، هو الوحيد الذي لا يزال يرى أن هذا النور غامض ولا يمزجه مع مجرد حدث ثقافي". فحينما ينتقل كل واحد إلى شيء آخر، فإنه [أي هيدغر] يواصل التقدّم فيما بين تقاطعات الإنهاء والانفتاح نفسيهما" (جيرار غرانيل، تسليم التقاليد، 1972، ص 152). وهنا تثير انتباهنا طريقة غرانيل في التنديد بالانحراف "الثقافي" للفلسفة المعاصرة (أو الخطاب العلمي/الإنساني)، الذي لم يسلم منه سوى مفكرين نادرين وجاك دريدا على رأسهم.

"جاك دريدا وشطب الأصل"، مقال منشور عام 1967 في مجلة "نقد" في العام نفسه الذي فرض فيه المؤلف نفسه على الجمهور الفلسفي بمناسبة نشره لثلاثة أعمال كبيرة: الصوت والظاهرة، في الغراماتولوجيا، الكتابة والاختلاف. والحال أنه لو تمكن المقال المذكور من توضيح، بكل توافق ووضوح غير مسبوقين للحدث الذي أخذ في الظهور على المشهد الفكري (الذي كان أيضا مشهد البنيوية في تراجعها) فإن عمل دريدا الجديد قد أجاب بدقّة على العديد من الأسئلة التي طالما تأملها غرانيل. سربط الـ"لقاء الفلسفي" الاستثنائي لدريدا بجرانيل لسببين:

إدراج سؤال الكتابة في قلب الفكر الحديث قد أجاب دفعة واحدة على اهتمامين. لقد فتح إقليما لم يكن في الحسبان على التأمل الأنثروبولوجي. الفلسفي المرتبط بالنظام الإبيستيمولوجي لعلوم الإنسان، كما أنه، من جهة أخرى، اكتشف بعدا لم يكن مكتشفا للدايزين (الوجود) في تقاطع أسئلة الكينونة واللغة. كما نبّه إليه غرانيل، فكل شيء كان يجري بالنسبة لقارئ 1967، كما لو كان "لدريدا مهارة [...] [معاودة] بدء العملية التي تركز على خلط عشوائي للعلم الخاص بالميدان الإمبريقي المعتبر [بالنظر إلى الكتابة] و"عمق" هرمينوطيقي يحتمي وراءه هذا العلم الجزئي [الذي كان] معادلا، بصورة غامضة،

للـل الميتافيزيقي، أو للمساءلة الميتافيزيقية، اي مترقعا عن بعد امتداد الفلسفة، وهو سؤال عصرنا بامتياز" (نفسه، ص 157).

هكذا يلخص غرانل بامتياز (نفسه، ص 160-163)، فكل إبداع دريدا يتركز في التنديد بالتواطؤات المثالية/الروحية "للصوت الحي" (الشفاهية) وبالتزامن مع ذلك في بيان الدور الجوهرى لـ"إمكانية التكرار" الخالصة، المحايثة للذاتية، وبالتالي لنظام انتشار الحضور (أو الذاتية) مثلما هي نفسها.

لم يكن لـغرانل سوى أن يفتتن بـ"الصوت والظاهرة" وبالنقد البارع للفيونومينولوجيا الذي منحه إياه دريدا. لقد سمحت وجهة نظر دريدا، في الواقع في الوقت نفسه، بتعميق أسباب القطيعة الهيدغرية مع نزعة هوسرل المثالية بقدر ما تمكن مؤلف "الصوت والظاهرة" من وضع أصبعه:

- i. على الميراث الأفلاطوني (والديكارتى) للفيونومينولوجيا.
- ii. على عدم قدرته على توسيع تأمل أنطيق-أنطولوجي فعلى (بالنظر خصوصا إلى سؤال أصل الذاتية).

غير أن هذا الانسجام مع الطروحات الدريدية كان له، طبعاً، ما يقابله: فقد أحدث حيرة غرانل فيما يخص العلاقات بين فكر دريدا وفكر هيدغر:

"ينبغي قول ذلك، حالاً. فبعض آراء دريدا عن هيدغر صادمة". غير أن غرانل يغدُل عن رأيه فجأة ويُعدِّل حكمه الذي يجده صارماً جداً. "لابدّ هاهنا من ملاحظة شيئين: أولاً أن ما [يحمل] في بعض الفقرات، صورة التأكيد يأخذ في مواضع أخرى صورة الاستهزام؛ ثم إن دريدا يقلب، في مناسبات متعددة، العلاقة ويمنح فجأة وبدون تحفّظ، لهيدغر ما بدا أنه أراد استبعاده منه" (نفسه، ص 167). في مقابل ترددات المنطقة الرمادية أو اللامفكرة التي تمتد بين سؤال الكتابة وسؤال الكينونة يتحدّث غرانل عن التردّد" (أنظر، نفسه، ص 171).

ذلك أنّه أمكن، مع مرور عدة عقود (بالنظر إلى ما يمكن أن يكون لنا اليوم) قد يكون "الاختراق" الدريدي قد صار يهتم قبل كل شيء بإعادة مفاوضة العلاقات بين ما يسميه غرانل بـ"العمل النظري" "اللاوضعي" و"نظرية المجالات [...] "الوضعية": التحليل النفسي، اللسانيات، الأنثروبولوجيا والتاريخ. كل النقاش حول المقاربة والاختلاف بين دريدا وهيدغر كان مختصاً حينذاك بالإرساء الميتافيزيقي/روحاني غير الواضح للعلم (وبخاصة لـ"علوم الإنسان") وبالتالي بإمكانية الانتقال الفعلي (أو عدم إمكانية الانتقال أو مأزق نهائي) كما يستحضر هيدغر في كتابه عن كانط: "من] أنثروبولوجيا

إمبريقية [إلى] أنثروبولوجيا تكتفي بمتطلبات الإشكالية الترنسندانتالية، أي [ب] أنثروبولوجيا خالصة" (هيدغر، نفسه، ص 263).

وفي الأخير، إذا، في سياق "التردد" أو "التذبذب" الهيدغيري/الدريدي يتفق الأمر مع مقارنة: "الأنثروبولوجيا الماركسية لعام 1844 وسؤال "القطيعة" الذي نُشر لأول مرة عام 1969 في "صمود الفكر"، ولأنّ ناشر كتاب "تسليم التقليد" حينذاك، سيعيد فتح سؤال العلاقة بين فيورباخ، هيغل وماركس دفعة واحدة، وبالتالي علاقات معقدة ما بين الفلسفة والمسيحية (بين الفلسفة والأنثروبولوجيا الدينية؛ اللوغوس والميثوس) إذ علينا أن نعتبر هذا النص كحجر الزاوية الذي بناه غرانيل.

إن عمل غرانيل حول ماركس يندرج ضمن إطار ردود الأفعال النقدية على النشر كتاب "لأجل ماركس" 1965 لـ: ألتوسير، ثم لـ: "قراءة رأس المال" لألتوسير، رانسير وماشيري (Macherey). على هذه الأرضية السجالية سيؤكد غرانيل بأوضح ما يكون دور المنشق الذي تشهد عليه طبعا حلقات رِدّته الكاثوليكية" (الغموض هو نفسه) (أنظر، في، الجزء الموسوم بـ: المعركة في الكنيسة، لـ: تسليم التقليد، خصوصا "تفكيك الثيولوجيا" (...)).

من الملاحظ أن صاحب "تسليم التقليد" يتخذ من بداية اللعبة مسافته بالنظر إلى معاودات التأويل الجديدة، التي تدّعي أنها مجدّدة للماركسية، كي تفتح ورشة توضيح المواقف الفلسفية الخاصة بماركس الشاب. إنّ المواقف النقدية، هي في هذا الموضع، بدون غموض: "اليقين الماركسي [الذي وفقا له] ليس للفلسفة [...] تحديدا خاصا ولا يوجد تاريخا يجعلنا ننسى أنّ كلّ ميتافيزيقا هي، لا فقط نظرية في الإنسان، بل أيضا، وبالحركة نفسها، هي نظرية في الوجود. لن نتساءل أيضا عمّا يعنيه مجرد أن تكون الكينونة مفكّرة من طرف ماركس باعتبارها إنتاجا ولا كيف يمكن لهذا أن يرتبط باكتمال ميتافيزيقا الحداثيين في فلسفة هيغل، من جهة، ومن جهة أخرى في "الثورة النظرية الواقعية" الوحيدة [حسب عبارة ماركس نفسه] التي حدثت منذ هيغل في (أو ضمن) هذه الميتافيزيقا المكتملة، أي لدى فيورباخ. ومع ذلك، وفقا لمنظورنا، [يوصل غرانيل]، فإن تأويل هذا الحدث المزدوج [...] يظهر وجود الإنسان باعتباره منتجا (يكون جوهره اللاجوهري هو العامل)، والكينونة عينها باعتبارها إنتاجا (التي جوهرها هو العمل)، وهو ما يتطلب قراءة مخطوطات 1844 [والإيديولوجيا الألمانية]". (جيرار غرانيل، تسليم التقليد، ص 183).

هذا الاقتباس المطوّل يوضّح، لا فقط توجيهه التأويل الغرانيلي، بل يقدّم لنا نظرة عن غاية مجمل حاجه في "تسليم التقاليد". يقتبس مؤلف "مفتتح ماركس" (وهو العنوان الذي أعطاه غرانيل

لعمله الخاص بعام 1969 في كتاب "تسليم التقليد" (فقرة مطوّلة عن مخطوطات 1844 (نفسه، ص 187-188) والذي يتبنى من خلاله غرانل الموقف الإلحادي الجذري لماركس بدون أي تحفظ. إذ إنه، وفي الفقرة المذكورة سيواجه مباشرة موقف الإلحاد الحديث بالتصوّر "الخلقي" (créationniste) الذي له اعتبار أنثروبولوجي وفلسفي مسيحي بصدّد "الجوهر الإنساني" أو مثلاً يفضل غرانل التعبير عنه بـ"كينونة-الإنسان". (نفسه، ص 125).

يعلّق غرانل مطوّلاً "لإثبات" البسيط من المخطوط الثالث: "الإنسان، بصورة مباشرة، كائن من الطبيعة". إنه ينبّه إلى أن "الكلمة الأهم [...] هي "مباشرة" [التي لم ينتبه لها ماركس] وسرعان ما يدقّق لكي يستحضر المعنى الواضح للمصطلح يفتح فكر ماركس على الغموض الذي يخفيه، أن "ما يتعلّق به ليس مباشراً أبداً" (نفسه).

إن السؤال المطروح على "كينونة الإنسان"، وهو في الواقع غير قابل للرّد للإنسان "في الطبيعة"، ولا إلى فكرة الطبيعة (وكلاسيكياً إلى فكرة الإله) "في الإنسان"،... إلخ، وإنما كما يقول غرانل، بالضبط، هو يحيل إلى "الطابع الأصلي لكينونة-الواحد-مع-الآخر"، ويضيف "ليكون الكائن، وأن تكون هنا كينونة الإنسان هو ما ينطلق منه ماركس كمبدأ يفكر من خلاله في "جوهر الإنسان (الإنسان الإنساني) والكائن عموماً ("الطبيعة") (نفسه، ص 186). بهذا يفتح غرانل بشجاعة السؤال الكبير لتفكيك الأنثروبولوجيا الدينية، أي أيضاً على أفق ثقافتنا اليهودي-مسيحية وبالتزامن مع تحويل الموروث الفلسفي في أفق "نهاية الفلسفة". غير أنه عليّ التخلي هاهنا عن تلخيص دربه الملحوظ. ستكفي الإشارة إلى أنه يقارب الأسئلة واحداً بواحد:

سؤال (i) حول التوتر التاريخي بين العلة والأصل (نفسه، ص 195).

سؤال (ii) عن إنتاج الذاتية باعتبارها ذاتية محضة (subjectité).

سؤال (iii) في الأفق الإبداعي الخاص بماركس حول موضوع "الكينونة باعتبارها إنتاجاً".

(نفسه، ص 222).

يتعلّق الأمر، في أفق الاستقصاء الغرانلي، بالتوجه نحو الكينونة-الفارغة ونحو فكرة الإنسان باعتباره حدثاً (Ereignis)، إنتاجاً-ذاتياً للإنسان بالإنسان، اختباراً للطبيعة اللاتطبيعية (التي تم تشويهها). وبغية إجمال مراحل تفسير "تسليم التقليد"، أسعى في الأخير، إلى وضع هذا التعليق، بخصوص هيدغر، دريدا وماركس (حول موضوع "عمل [ال] حياة [وال] لغة" (ميشال فوكو، الكلمات والأشياء، أركيولوجيا علوم الإنسان، 1966، ص 229-398). وفي أفق العمل الذي أتابعه منذ عقود،

أريد بيان الخطوط الكبرى في سبع نقاط لما يمكن أن تكون عليه الفلسفة مستقبلاً في المسؤولية والحرية في أفق انفجار أو "تشتت" المسألة للحظات تختفي وتتجلى (أو تجلي الخفي) (أنظر، دريدا، أطياف ماركس).

1. ما نتعلمه من أنثروبولوجيا القدماء (Paléanthropologie) عن تطور البشرية هو اكتساب قدرة المشي على الأقدام، والتخلص من احتكار استعمال اليد ونمو القدرات الدماغية وأخيراً اختراع أدوات العمل (الولوح إلى حقل الانتباه البصري للنشاط اليدوي) مهّد الطريق لما هو موجود في متناول اليد ولما هو موجود تحت اليد، إي لإمكانية ظهور عالم.
2. التطور السريع الذي انطلق حينذاك يدشن، لأول مرة، عمل النسيان ومعاودة البدء بفضل الاختبار المعيش، من الآن فصاعداً، عن التجديد أو "إحياء" [يوسويه] الأجيال. شيء ما كأبداع لاواعٍ أمكنه حينها أن يبدأ، إذ جعل من إبداع الثقافة أمراً ممكناً: التكوين-الذاتي للإنسان بالإنسان.
3. كانت الوتيرة الخلاقة لهذا التطور تمثل التقاقم المرضي لانفعالات "القلق والفرح" (م. هيدغر)، أو "المكابدة والمتعة" (م. هنري) بواسطة الممارسات الطقوسية الدينية-البدئية. ففي هذا السياق أمكن لنضوج الصوت إنتاج ذاته: إصغاء، مسبق على الدوام، فردي وجماعي للأخر في الذات.
4. إنه الرابط العرضي للكلمة وللموت (للصوت وطقوس الموت) الذي جعل العبور من العتبة الرمزية ممكناً. هذا الحدث الأكستاتيكي (تجاوز الذات) الذي يدشن اللقاء باللاشيء (أو بموت ذات الآخر) كان مدشناً للذاتية الخالصة، أي الوجود اللامتناهي للذاتين.
5. رافد التفشي المشترك للنص، للزمن، للصورة، للدلالة. فإن دخول مشهد الجوانية الواعية يقذف بأسس مجتمع رمزي فريد من نوعه بفضل الإبداع المشترك الدائم للوغوس والميثوس والطبيعة أو لوهم "الطبيعة".
6. إن انمحاء العمل الأبدي للذاتين الطفولي يعارض بلورة التخييلات السحرية أو المقدسة لـ"العالم الآخر". هذا الإجبار المغترب أخذ حينها زمام السيطرة البدئية الدينية الانفعالية الخالصة والقبل-رمزي. إنه يفرض التشكلات الثقافية المختلفة، بدء من الآن، للتشكيل الذاتي بواسطة الإنسان وهو ما يصنع وحدة مع تاريخ نوعنا.

7. إن رفع الاغتراب الديني هو نتيجة التطور القديم الذي عقب الثورة النيوليتية. هذا الاختلال الذي كان يحكم تدنيس المقدس السحيق، بخاصة، في العالم الإغريقي (الانتقال من العصر القديم للتيتان إلى الآلهة الأولمبية ثم إلى الفلسفة) و"استدعاء" إله خالق واحد، مهتم بخلاص الإنسان في العالم العبري. وأخيرا يحدث كل شيء كما لو أن هذا التطور السحيق غير قادر (أو لم يتمكن)، ليس عليه (أو لم يكن عليه) الوصول إلى نهايته سوى في عصر العالم الذي هو عالمنا.

السؤال، إذا، هو معرفة ما إذا كان العمل البطيء لفك الشيفرة والتحرر بإمكانه "خلق عالم"، وجعل مكانة ما للعالم البعد-تاريخي، والاحتفاء بميلادنا المقبل على الفناء. أيمكن لفهم مغاير تماما لماضيينا ومستقبلنا أن يسمح لنا بتجاوز عتبة البشاعة وفتح دروب (إعادة فتح الفجوة) الأنسنة ؟ هذا السؤال القصي لم يعد نابعا من العلم. إنه يتطلب، بدء من الآن، صبغة الالتزام الإيتيقي لكل إنسان كما يلتزم به الجميع.

قائمة المراجع:

1. جيرار غرانل، تسليم التقليد، باريس، غاليمار، 1972.2.
2. مارتن هيدغر، كانط ومشكلة الميتافيزيقا، الترجمة الفرنسية، باريس، غاليمار، 1953.
3. فوكو، الكلمات والأشياء، أركيولوجيا علوم الإنسان، الجزء الثاني، غاليمار، باريس، 1966.